"قابلية الإصلاح و القابلية للنهضة"

خصوصية المجتمع المصرى وخصوصية المصلحين ذوى المشرب الإسلامى

د. المصطفى حجازي

ديثنا عن قضية مبدأية وهى قابلية المجتمعات للإصلاح والنهضة، وبمعنى آخر هل كل المجتمعات مؤهلة لكى تصلح ومن ثم تحقق نهضتها وهل هناك سمات حاكمة للمجتمعات الناهضة؟!

وتلك القضية وإن بدت تشى باختلاف فطرة البشر وميلهم الطبيعى للخير من مجتمع إلى آخر إلا إنها إقرار لواقع حتمية إعوجاج هذه الفطرة وفقا لما صارت إليه أحوال الناس فى هذه المجتمعات من تغييب إعمال العقل والذى هو مناط التكريم والذى وردت الدعوة إلى إعماله فى القرآن الكريم مرارا "أفلا يتفكرون"، "أفلا يتبدرون"، "أفلا يعقلون". ويصير إنكار هذا التفاوت فى القابلية للنهضة ، إنكارا لسنة إلهية ورد خبرها فى الكتب المقدسة وهى سنة الاستبدال حال فشل البشر فى أن يكونوا أهلا لاستخلاف فى إعمار الأرض وتحقيق مراد الله فيهم ولهم. ونتناول على وجه التحديد خصوصية المجتمعات العربية والإسلامية كنموذج لمجتمعات إنسانية كانت لها قائمة حضارية مشهودة فى التاريخ ولكنها تعيش طور تراجع يجعلها مؤهلة لتقييم قابليتها للنهضة الآن.

وما نعيشه اليوم من ا نتكاس لدور المسلمين الحضارى وغيابهم التام عن أى ريادة للحضارة الإنسانية هو لون من ألوان الاستبدال أو طور من أطواره.

ونعرض بداءة لحقيقة أساسية ستسهم فى استجلاء القضية المطروحة وهى مستويات الفكر المنشئ والمؤطِّر للحركة الإنسانية.

وما نؤسس له ونؤكده أن مستويات الفكر الإنسانى على مدار تاريخه كانت فى ثلاث فضاءات كلية وإن اختلفت تفصيلاتها الداخلية، وهى الفضاء الفلسفى (اقتفاء الحكمة النهائية)، يليه فضاء الرؤى أو الاسترتيجيات العليا وأخيراً فضاء الأهداف الجزئية أو الإسترتيجيات الجزئية أو خطة ربط الفعل بالحركة. وعلى مدار التاريخ الإنسانى كانت هناك طائفة من البشر معنية بالفضاء الفلسفى قادرة على إيجاده وإحداث أثره، ثم كان هناك من قاد الإنسانية على خلفية فلسفات واضحة حيث كان إسهامه فى ريادته لفضاء الرؤى بما قدمه للبشرية من مناهج فكر موصول بمنهج فعل، و أخيراً كان هناك قادة الإصلاح والقادرون دوما على إحداث فعل إصلاحى موصول بالرؤى الكلية يظهر فيه أثر الفلسفة جليا دون إقحام لها بشكل مباشر مناقشة أو ذكراً.

وكان من تمام رسالة الإصلاح الإنسانى فى دعوة الإسلام هو اكتمال أسس المستويات الفكرية الثلاث فى تعامل الإسلام مع الإنسان سواء من اعتنق الإسلام دينا أو من قدر له أن يحيا بعد تمام الرسالة و الدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وكان قدرة الغالبية القادرة على إمضاء دفة حركة مجتمع (أو من نشير إليهم بالكتلة الحرجة للمجتمعات ومن كانوا رواداً للحضارة الإسلامية) على فهم قيمة هذا الاكتمال بل وإسراعهم إلى بناء جل حركتهم فى الحياة عليه و تقديرهم لكونه طور من أطوار رقى الفكر الإنسانى نحو تحقيق مراد الله للبشر دون عنت وسيلة السعادة فى الحياة الدنيا والأخرة وكان ما انتقل بهم من بداوة الصحراء إلى ريادة البشرية عن استحقاق. وعليه كان حرصهم أن يستمتعوا بتفعيله ونتاجه دونما ادعاء علو أو اختلاف عن من كان قبلهم أو من عايشهم من بشر. بل كان حرصهم أن يحصد نتاجه من عايشهم فى دنياهم على الأقل إن لم يرد إيمانا بدعوتهم وكان حرصهم على دعوته لكى يكون حصاداً له فى حياة أخرى.

كما نريد أن نؤكد مرتكز آخر للتحليل فى هذا المبحث وهو أنه لم يكن هناك يوما فى التاريخ الإنسانى خلا من مساحات شر منشأها ما يعترى بشر المجتمعات الإنسانية من ميل إلى ضعف أو أثرة. بمعنى آخر لم يكن يوما ولن يكون هناك مجتمع طوباوى مهما سمت الأسس الفكرية التى

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2008

انطلق منها صلاحه وحركة حياته. وعليه فحين نعرض لفهم المسلمين لأمثلة المحددات الفكرية والفقهية التى سترد فنحن نعرض لفهم العدول منهم والتى كان من رحمة الله على المجتمعات الإسلامية فى طور صعودها أن يمثل هؤلاء العدول الغالبية المحركة لدفة المجتمع (الكتلة الحرجة). وأحد الأسس الحاكمة التى نخلص إليها فى المجتمعات القابلة للنهضة هى القدرة على تكوين كتلة حرجة من بنيها قادرة على تعاطى وتفعيل تلك المستويات الثلاث من الفكر المؤطر لحركة البشر.

بل و نؤكد أن ادعاء حالة أقرب للكمال والطوباوية عند سرد تاريخ صنع المسلمين لحضارتهم وذلك بالإيحاء أنه بمجرد اعتناقهم للإسلام فكرا كليا – وهو الفكر المكتمل فى قرآنه وصحيح أثره الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – دونما الأخذ بأسباب الانتقال إلى كيفية التطبيق يحيل هذا الكمال خيرية مُدَّعاة لهم عن كافة البشر يقلل من شأن جهدهم الفريد فى الأخذ بالأسباب فى إطار منظومتهم القيمية، وكذلك فيه إغفال مخل لعناصر الكمال فى فلسفة الفكر الإسلامى بل وافتراء على الله أشبه بافتراء اليهود على الله حال ادعاءهم أنهم الشعب المختار لا لشىء إلا لاصطفاء الله لهم.

ونبدأ حديثنا حول هذه القضية المبدأية بتأمل موقف المصلحين الحاليين- من أصحاب المشرب الإسلامى أو من يجوز أن نسمهم بالتعريف المعاصر معتنقى الأيديولوجية الإسلامية والتى طالها حيد عن الأصل فى مجملها كما سنورد لاحقا (مع التأكيد على أن الأيديولوجية "هى ماينوب عن الفرد فى التفكير") من بعض محددات فقهية وملامح فكرية وردت فى الأثر الإسلامى والبون الشاسع بين موقفهم وموقف نظرائهم فى طور صعود الحضارة الإسلامية (والتى كانت الحضارة المتفردة السائدة على المعمورة فى العصور الوسطى).

"الأصل فى الأمور الإباحة إلا ما حرم بنص" كان تعامل العدول مع هذه القاعدة فى مجال انطلاق الفكر اقتفاءاً للحقيقة أو الحكمة أن الأصل فى الفكر هو الانطلاق غير المسقوف – إلا بمقاصد فطرية وإنسانية (والتى ما هى إلا المقاصد الشرعية)- نحو الرغبة فى ترقية حال أو تحقيق واقع أرغد وأكثر متعةوسعادة. والذى قيل فقهاً عند التعامل مع قضية المصالح "أنه أينما كانت مصلحة الناس فثم شرع الله" والمعنى الوارد أن الشرع جاء لكى يعين البشر على استخلافهم فى الأرض وإعمارهم لها من خلال تأطير حركتهم ومنهجتها من خلال منهجه.

أى أن هيمنة الشرع على الفعل ماكانت إلا من أجل تحقيق الفعل البشرى لمقصده الإنسانى وهو إسعاد البشر، فعليه كان انطلاق الرواد الأوائل للحضارة الإسلامية فكراً (أو ليبراليته إذا جاز التعبير) نحو المقاصد مسقوفا بتعريف المقاصد الإنسانى والذى أراده الله للبشر من سعادة مؤسسة على تحررهم إلا من عبوديته (حيث أن حركة حياة الإنسان لن تخلو من ميل أى من طرفى تعامل ما إلى تكريس تسيده واستعباد آخر) وعلى كرامة تنبنى على هذا التحرر وعدل مؤسس على الكرامة كمقتضى وأساس تعامل بين البشر. وكان النتاج العملى لهذا الفهم والفعل هو أن ارتبط أصحاب التوحيد عقيدة بممارسات تصب جمها فى مصلحة من يعايشونهم فى أوطانهم مواطنة أو يقعوا تحت حكمهم.

وحتى فى أمور العبادة والنسك كان الفهم السائد للعدول هو حقيقة كون النسك وسائل لتهذيب وتدريب الوعى على مقصد الخلق ذاته بأن تحدث أثرا مجتمعياً يكرس للمجتمع حريته وكرامته وعدله ومن ثم سعادته ؛ وما كان تعريف ربعى بن عامر فى حضرة "رستم" القائد الفارسى حينما سأله رستم عن تعريفه لقومه أوعما يمثلون فما كان منه إلا أن رأى أن المسلمين "قوم ابتعثهم الله ليخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد (قضيتى الحرية والكرامة) ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام (قضية العدالة) ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة (السعادة المكتملة والمستدامة)"

وما كان تعاملهم مع قضية الجهاد إلا فى ذات الإطار المقاصدى فكان فهمهم لطلب الحسنيين فى الجهاد "النصر أو الشهادة" فهما راسخا على أن الحياة فى سبيل الله كالموت فى سبيل الله كلاهما جهاد مشكور، وأن الجهاد إنما جعل طلبا لنصرة حق وعزة الدين الذى يضمن للبشرية نضجها ويرفع العنت عنها حال بحثها عن سعادتها فى الحيوان (الدنيا والآخرة)، فما كان فهمهم للجهاد أنه طلبا لموت وما كان حديث الرسول الكريم غائباً عنهم "بأن من أول من يسعر به النار شهيد " خالط الرياء نيته لأنه قدم طلب الموت رياء عن الرغبة فى تحقيق مقصد العزة للرسالة وإن لم يمت.

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2008

وعليه كان جل فعلهم منشأه دعم حركة الحياة والإعمار واقتفاء الأسباب البشرية والمادية وإعمال العقل من أجل أن تكون حياة البشر أسعد وأكثر حرية وعدالة وكرامة، وكان ما يعينهم على قبول التحديات والعقبات التى تعترض طريق حركتهم من أجل إعمار الأرض أو ما يرجونه من مقابل من أجر عن فعلهم الإنسانى الفطرى من اقتفاء لحياة طيبة عامرة إلا إيمان راسخ بأن الله من وراء القصد وهو من يجزى الجزاء الأوفى. فكان إيمانهم إضافة لإنسانيتهم ولم يكن أبدا خصما منها.

كان هذا هو فهم العدول العاملون بحق على إعمار الأرض فى إطار الفلسفة الإسلامية ممن ارتضوا الإسلام دينا أو من عاشوا فى كنفه إبان صعود الحضارة الإسلامية وتسيدها، وكانت هذه دلالات قدرتهم على الصلاح والإصلاح و التنمية. ونظن أن المقارنة العادلة بين فهم أصحاب المشرب الإسلامى الآن لما سبق سرده تقرر عدة حقائق نجملها فيما يلى:

أولا: الغياب العملى التام لفهم التكليف الإلهى بإعمار الأرض والاستخلاف فيها فى الإطار المقاصدى الإنسانى

ثانيا: اختلاط فهم كنه حركة الحياة بين الفعل والإنجاز والارتهان لغواية الحركة لما لها من استحقاقات عملية أقل مع أثر إعلامى أكبر.

ثالثا: عزوفهم الفعلى عن اقتفاء حريتهم وكرامتهم أو عدل مجتمعاتهم بل واعتناقهم تفسيرات تؤصل هذا العزوف على خلفية أن ما اعترى الحضارة الغربية من انحلال ما كان إلا لاستغراقها فى إعلاء من قيمة حريتهم وقيمة إنسانيتهم!

ثالثا: غياب المقاصد فهما وفعلا وممارسة عن حياتهم وهو ما أودى بهمإلى اعتناق فهم قاصر لكنه حركة الحياة ومن ثم صارت حركة وفقط أى أن التوجه للفعل منبت عن مقاصده (وإن ادعى غير ذلك) وغير مقاس على معياره الذى أراده الله له.

رابعا: ازدراء الحكمة وعزوف عن الفلسفة الكلية تعاليا، واعتبار أن كمال المنهج الفلسفى الإسلامى ذاته ينسحب عليهم كشخوص دونما سعى إلى فهمه وتفعيله

خامسا: غربة تامة عن الفكر والفعل الممنهج وتصحر كفاءات إنتاج الفكر الإنسانى المتجدد.

وبناء على ما سبق صارت المشكلة انتكاسا مركبا فى النخبة والعامة، انتكاس منشأه تحالف جهل وفساد، فالنخب أصبحت غير مؤهلة لدورها استراتيجيا وفنيا والعامة كذلك وهو ما ينذر بأن مجتمعاتنا العربية والإسلامية أصبحت فاقدة لقابليتها للإصلاح والنهضة ما لم تفهم حقيقة وطبيعة ابتلائها وتثوب إلى إنسانية رسالتها.

"تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير..الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور"

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2008